الضاد بين الشفاهية والكتابية

أبو أوس، إبراهيم بن سليمان الشمسان*

لصوت الضاد أهمية بالغة عند العرب حتى إنهم سموا لغتهم بلغة الضاد؛ وإن لم يكن لهذا ما يسوغه من الناحية العلمية. ولصوت الضاد شكل كتابي واحد؛ وله أشكال نطقية مختلفة، فهو قد نطق بكيفيات مختلفة منها ما هو تاريخي عُرف من وصف علماء العربية القدماء ومنها ما هو مسموع في استعمال الناس اليوم. على أن أبرز قضية في نطق الضاد أنه يشابه نطق صوت آخر هو (الظاء)؛ ولشدة هذا الشبه اختلط على الناس نطق الكلمات الضادية والظائية وأورث هذا خلطًا في كتابة الكلمات أيضًا، وظهر هذا جليًّا في الأسماء السعودية. وأكثر علماء اللغة المعنيين بالساميات يميلون إلى أن الضاد هي ظاء جانبية. والمتأمل بنطق بعض العرب الضاد نطقًا مطابقًا للظاء، ولشدة إلحاح علماء القراءات على وجوب التمييز بين الصوتين لما قرروه من شدة تقاربهما في الصوت يميل البحث إلى أن الظاء أصل للضاد صوتيًّا؛ ولذا ذهب الباحث إلى أن الضاد صورة صوتية من الظاء. وأما الكتابة بحرفين مختلفين هما الضاد والظاء فأمر له نظائره في لغات أخرى، وهو أمر لا يمكن تغييره بسهولة فدعا إلى الإبقاء عليه مع الحرص على التفرقة بين ما هو ضادي وما هو ظائي.

مقدمة:

للخطاب الشفهي أهمية بالغة في مستويات اللغة كلها صوتًا وصرفًا ونحوًا ومعجمًا ودلالة، فهو يعطي بمحتواه الحاضر الشهادة على استمرار ظواهر لغوية تردد ذكرها في المدونات اللغوية القديمة، وهو أيضًا يشرح على نحو جلي

* أستاذ النحو والصرف في جامعة الملك سعود.

ما لم يستطع التدوين تسجيله لقصور آلته ورموزه الصوتية. فلسنا مدركين للكاف التي بين الكاف والشين أو الجيم التي بين الجيم والشين أو الجيم التي بين الجيم والقاف لولا أننا نسمع هذا في بيئاتنا الحاضرة اليوم، وهو إلى ذلك يكشف عن التغيّرات التي طرأت على ظواهر أخرى، وعلى الرغم من أن التغير في جميع أنماط النشاط الإنساني سنة كونية لا مفرّ منها إلا أن ذلك التغير شهد شيئًا من التوقف أو التلكؤ عند مرحلة النشاط اللغوي الأولى التي بلغت ذروتها على يد الخليل وتلامذته، إذ ما تلا تلك القرون إنما هو في الغالب يدور في فلك تلك المرحلة موجزًا أو شارحًا أو محشيًا. وعلى المستوى المعجمي كان الرصيد في أوسع تجلياته كما في تاج العروس نتيجة تجميع أعمال سابقة؛ إذ لم ينشط اللغويون إلى ضم ما ابتكره الناس فظهر في كتبهم أو ما تداولوه شفاهيًا فاندثر أو اتصل بعضه. وظل المعجم العربي ممثلاً للغة عربية في مرحلة قديمة؛ ومن أجل ذلك كانت البيئات العربية، وبخاصة في الجزيرة العربية، حافلة بالمفردات اللغوية الفصيحة جذرًا وبنية ولكنها لا توجد في المعجم. ولئن وُجد جذر يوافقها فقد لا يوجد المعنى في المعجم. مثال ذلك كلمة (قدوع) وهو اسم يطلق على ما يُقدّم عند شرب القهوة العربية وهو في الغالب التمر، والجذر (ق/د/ع) في المعجم ولكنه يدل على الضرب، وهو معنى لا صلة له واضحة بالمعنى المتداول شفاهيًا. ومن أجل ذلك هناك صعوبة بالغة اليوم في فهم كثير من أسماء الناس (الأعلام)؛ لعدم وجود مداخل معجمية لها. وليس من السهل معالجة أثر المشافهة على الظواهر اللغوية كلها؛ لأن هذه القضية واسعة ومن أجل ذلك سيكتفى بمقاربة قضية مثيرة هي (الضاد) لملاحظة أثر الكتابة والمشافهة عليها.

1. دعوى لغة الضاد

يطلق العرب على لغتهم مفتخرين لقب «لغة الضاد»، وبهذا تغنّى شعراؤهم»[1]. ولكن هذا الحرف من العربية على الرغم من احتفاء الناس به هو من أقل الحروف استعمالاً في ألفاظها، وهو من أثقلها على اللسان إن لم يكن أثقلها. وهو صوت لم يستطع أهل اللغة المحافظة على نطقه على الهيئة الموصوفة في كتب علماء العربية القدماء، بل اختلط أداؤه بأداء صوت آخر هو الظاء. وليس لهذا الصوت قيمة وظيفية كالنون أو اللام أو الباء، بل هو حرف مبنًى فقط»[2]. ومن أجل ذلك لا مزية لهذا الصوت ليكون لقبًا للعربية، غير أن هذا الاحتفاء به مردود إلى أمرين: أحدهما ارتباط الضاد بفصاحة الرسول r ، الأمر الآخر توهم القول بتفرد العربية بالضاد.

([1]) يقول المتنبي فيها:

وَبِهِم فَخرُ كُلِّ مَن نَطَقَ الضا ... دَ وَعَوذُ الجاني وَغَوثُ الطَريدِ

وكذلك شرف الدين البوصيري:

فَارْضَهُ أفْصَحَ امرئٍ نطقَ الضَّا ... دَ فقامتْ تَغَارُ منها الظاءُ

ومن المحدثين خليل مطران يفخر بها:

لُغَةُ الضَّادِ أَنْبَتَتْ فِي بُحُورِ ... الشِّعرِ دُرًّا حَيًّا بَدِيعَ البَرِيقِ

أو يلوم المقصرين عن الاستفادة منها:

لُغَةُ الضَّادِ لا تَضَنُّ عَلَيْكُمْ ... إِنْ جَدَدْتُمْ بِكُلِّ مَا تَبْتَغُونَا

(2) محمد سعيد صالح ربيع الغامدي. «العربية لغة النون»، **مجلة الدراسات اللغوية**، (2005م)، مج7، ع2، ص33.

2. دعوى (أنا أفصح من نطق بالضاد)

نجد مثال ارتباط الضاد بفصاحة الرسول في قول ابن الأثير: «اعلم أن هذا الفن هو أشرف الفضائل وأعلاها درجة ولولا ذلك لما فخر به رسول الله في عدة مواقف، فقال تارة: (أنا أفصح من نطق بالضاد) وقال تارة: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث في قومه ... وما سمع بأن رسول الله r افتخر بشيء من العلوم سوى علم الفصاحة والبلاغة، فلم يقل إنه أفقه الناس، ولا أعلم الناس بالحساب، ولا بالطب ولا بغير ذلك، كما قال: (أنا أفصح من نطق بالضاد)»(3). وهذا ابن مالك يقول: «قد ورد في الحديث(أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش) ألا ترى كيف افتخر r بفصاحة النطق بها وأثبتها لنفسه وما نفاها عن قومه»(4).

أما أهل الحديث والمحققون من العلماء فينكرون هذا القول إنكارًا شديدًا، فهم يجمعون على أن هذا القول لا أصل له فهو موضوع. فهذا ابن البيطار يقول: «وهذا الجلال المحلي على جلالة محله، نقل حديث أنا أفصح من نطق بالضاد، وكذا شيخ الإسلام تلميذه، وهو موضوع عند النقاد»(5). وذكر الشامي أنَّ «ما اشتهر على ألسنة كثير من الناس أنه e قال: «أنا أفصح من نطق بالضاد». فقال

(3) ابن الأثير، **المثل السائر**، HTTP://WWW.ALWARAQ.NET/INDEX

(4) جمال الدين محمد بن مالك الطائي الجياني. **الاعتماد في نظائر الظاء والضاد**، تحقيق: حاتم صالح الضامن، (دمشق: دار البشائر، 2003)، ص18.

(5) عبد الرزاق البيطار. **حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر**، انظر: HTTP://WWW.ALWARAQ.NET/INDEX

الحافظ عماد الدين ابن الكثير —وتابعه تلميذه الزركشي— وابن الجوزي والشيخ والسخاوي: إنه لا أصل له»[6]. وقال عنه ابن الجزري [7] و الأمير[8].

3. دعوى القول بتفرد العربية بالضاد

ينتهي إبراهيم أنيس بعد حديث عن الضاد إلى «أن علماء اللغة حتى أواخر القرن الثاني من الهجرة لم يشيروا إلى صوت الضاد على أنه مما تميزت به العربية وحدها»[9] ، ولم يطلقوا على هذه اللغة ذلك القول المأثور (لغة الضاد) وكل ما أشاروا إليه في كتبهم أنه كان هناك أنواع من النطق غير مستحسنة وقعت في بعض الأصوات ومن بينها الضاد»[10]. وأشار إلى «أن نطق العرب للضاد في صدر الإسلام لم يكد يسترعي انتباه أحد من العلماء، ولم يُشر إليه على أنه مما تميزت به العربية حتى أواخر القرن الثاني من الهجرة. فلم يقل أحد حتى ذلك الحين إن بعض المتكلمين بالعربية قد تعثروا في النطق بهذا الصوت وحده، وإن العربية لغة الضاد من أجل ذلك»[11].

---

(6) شمس الدين الشامي. **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1993)، 2: 103.

(7) ابن الجزري. **النشر في القراءات العشر**، بعناية: علي محمد الضباع، (د.م: المكتبة التجارية الكبرى، د.ت.)، ص 219.

(8) محمد الأمير. **حاشيته على مغني اللبيب**، (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت.)، 1: 105.

(9) المقصود بهذه الضاد الصوت الذي وصفه سيبويه، انظر: إبراهيم أنيس. **الأصوات اللغوية**، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1981)، ص50.

(10) أنيس، **الأصوات اللغوية**، ص56.

(11) أنيس، **الأصوات اللغوية**، ، ص57.

وتنبّه سلوى ناظم إلى أن الضاد ليست مقصورة على العربية (12) مستشهدة بأقوال المتقدمين من علماء العربية، فالخليل أكد في موضعين من معجم العين على أن الظاء هي الخاصة بلغة العرب، إذ قال: «وليس في شيء من الألْسن ظاء غير العربية». وتقول سلوى ناظم: «وهذا ابن فارس الذي لم يقصر الضاد على العرب، يصرح بأن الظاء والحاء للعرب وفي هذا يقول: ومما اختصت به لغة العرب (الحاء) و(الظاء)، وزعم ناس أن الضاد مقصورة على العرب دون سائر الأمم. أما ابن جني، بتحفظه المعهود، فيصرح قائلاً: «واعلم أن الظاء لا توجد في كلام النبط...»(13). ثم نقلت ما ردده صاحب اللسان وتاج العروس من أقوال الخليل وابن جني، ونقلت ما جاء في التاج: «قال شيخنا: وصرح بمثله أبو حيان وشيخه ابن أبي الأحوص، وغير واحد فلا يعتد بمن قال إنما الخاص بالضاد قلت وكأنه تعريض على البدر القرافي حيث قال إنما المختص بهم الضاد وقال ابن جني اعلم أن الظاء لا توجد في كلام النبط»(14).

ويمكن القول إن تفرد العرب بالظاء لا يدفع تفردهم بالضاد أيضًا، فابن جني الذي ورد قوله سابقًا عن الظاء ممن يذهبون إلى تفرد العرب بالضاد إذ قال: «واعلم أن الضاد للعرب خاصة ، ولا يوجد من كلام العجم إلا في القليل»(15).

---

(12) سلوى ناظم. **دراسات لغوية مقارنة**، (دون بيانات للنشر)، ص ص162-165.

(13) أبو الفتح عثمان بن جني. **سر صناعة الإعراب**، تحقيق: حسن هنداوي، (دمشق: دار القلم، 1985)، 1:227.

(14) ناظم، **دراسات لغوية مقارنة**، ص ص 164-165.

(15) **ابن جني**، سر صناعة الإعراب، **1: 214- 215**.

ويذهب المتخصصون بدراسة اللغات السامية إلى أن الضاد قد عرفت في الساميات ؛ ولكنها تحولت إلى أشكال صوتية أخرى. ومنهم من لا يصرح بذلك مكتفيًا بالقول إن في الساميات ما يقابلها من الأصوات الأخرى بناءً على موازنة الكلمة الواحدة في تلك اللغات. قال حسن ظاظا : «فهناك من ذهب من العلماء إلى القول بأن الضاد كانت موجودة في اللغة السامية الأم ولكنها كانت صوتًا مزدوجًا من قاف وسين (قساد)، وحجتهم في ذلك أننا لو أخذنا كلمة فيها ضاد، عامة شائعة في كل اللغات السامية، ولتكن كلمة (أرض) العربية لوجدناها في العبرية (آرص) بالصاد، وفي البابلية الآشورية (أرستو) بتفخيم في السين أحيانًا، وفي الحبشية (أرد)، وفي الآرامية (أرعا) أو (أرقا)»(16). ثم قال«فنحن إذن نختلف مع الذين قالوا إن الضاد، التي هي من أخص خصائص العربية الفصحى، لم تكن موجودة بلفظها هذا في السامية الأم، بل إننا نرى أن العربية بحفاظها على الضاد ربما اعتبرت هذا مفخرة لها، لتواتر حرف من حروف الأسلاف الأول على لسان العرب، انقرض تمامًا لدى غيرهم من الساميين»(17).

وردد الباحثون هذا المثال، كما نجد ذلك عند رمضان عبد التواب الذي يشير إلى وجودها في الحبشية. ثم يقول: «وإذا كانت الضاد بهذه الصورة توجد في بعض اللغات السامية كما رأينا كان من التجوز قول ابن جني: واعلم أن الضاد للعرب خاصة، ولا يوجد من كلام العجم إلا في القليل»(18). وأما

(16) حسن ظاظا. **كلام العرب: من قضايا اللغة العربية**، (الإسكندرية: مطبعة المصري، 1971) ص29.

(17) ظاظا، **كلام العرب** ، ص29.

(18) انظر: مقدمة رمضان عبدالتواب لكتاب: أبو البركات بن الأنباري. **زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء**، تحقيق: رمضان عبدالتواب، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1971)، ص 15.

سلوى ناظم فأشارت إلى أن الظاء موجودة في الأوجاريتية ونقلت قول خليل نامي في ذلك ثم انتهت إلى القول: «وهكذا يتبين لنا من جملة ما سبق أن المقولة الشائعة (العربية لغة الضاد) مقولة غير وثيقة. وأن المقولة الأخرى التي بدأها الخليل والتي تخص العربية بحرف الظاء، هي الأخرى فيها تجاوز- وإن كانت أقرب إلى الصواب»[19]. أما كاصد الزيدي فهو عاطفي النظرة حتى إنه ليغفل عن التناقض في القول حين يذهب إلى أن «تعدد صور الضاد في اللغات الجزرية [السامية] في كلمة (أرض) يَرُدّ زعم من يرى أن صوت الضاد لا يختص به العرب ويدفع استثناء ابن منظور في كلامه الذي أوردناه آنفًا حين يقول (ولا توجد في كلام العجم إلا في القليل)، إذ لا يعرف علم اللغة ولا تاريخ اللغات –قديمًا أو حديثًا– أحدًا كان ينطق هذا الصوت، غير الناطقين بالعربية»[20]. واستشهد الزيدي على عجز غير العرب عن نطق الضاد بكلمة (ضروري) فهم ينطقونها (زروري)»[21] ولكنهم كذلك ينطقون الظاء زايًا، فلا فرق عندهم بينهما»[22]. ونجد السحيمي يقرر أن الظاء العربية تحولت إلى صاد في البابلية والعبرية وكذلك الضاد قابلتها الصاد في اللغتين السابقتين، ويميل إلى أن اختفاء الصوتين (ظ/ض) من الساميات مقترن باختفاء الثاء والذال اللذين يميل إلى

(19) ناظم، **دراسات لغوية مقارنة**، ص 165.

(20) كاصد الزيدي. **دراسات نقدية في اللغة والنحو**، (عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، 2003)، ص127.

(21) الزيدي، **دراسات نقدية في اللغة والنحو**، 126.

(22) ومن طريف ما يقال أن كلمة (موسوعات) هي اللفظ التركي للكلمة العربية (موضوعات) فالضاد العربية تنطق زايًا مفخمة في التركية ثم دخلت العربية تاركة صفة الجهر فسمعت سينًا.

كونهما أساس الصوتين (ظ/ض)»[23]. أما فالح العجمي فحين تحدث عن تطور الضاد قصد الضاد كما تنطق في مصر[24] وذهب إلى أنه لم تتفق اللغات السامية في أشكال تطوره، فهو في البابلية الآشورية وفي الأوجاريتية والعبرية تطور إلى (ص) وأما في الآرامية القديمة فتحول إلى (ع) على ثلاث مراحل الأولى تحولها إلى (ق) والثانية إلى (گ) والثالثة إلى (غ). وكذلك تحولت الظاء إلى (ص) فلا يعلم أصل الصاد أمن الضاد هو أم من الظاء[25].

وقبل متابعة بحث جوانب هذه المسألة يجدر التنبيه إلى أن الباحثين الذين يدعون وجود الضاد في السامية إلى درجة الافتخار باستمراره في العربية عند ظاظا أو الذين ينفون ذلك إنما ينطلقون من مصادرة أولية هي وجود صوت متميز بأنه وحدة صوتية (phoneme) تسمى (الضاد)؛ ولذلك يشيرون إلى مقابلاتها أو تحولاتها. وليس وجود الضاد في العربية بدليل استمراره فيها فقد يكون حادثًا في أي مرحلة من مراحل استعمالها. ولا يختلف هؤلاء الباحثون عن صنيع علماء العربية القدماء الذين يرون أن الضاد خالطت حروفًا أخرى، وأن لها تلوّنات صوتية أخرى، وكل ذلك مبعثه إيمان بوجود وحدة صوتية (phoneme) اسمها (الضاد)؛ ويشك كاتب هذه السطور في الأمر جملة وتفصيلاً وهو ما تحاول الصفحات التالية إبانته.

---

(23) سليمان السحيمي. **إبدال الحروف في اللهجات العربية**، (المدينة المنورة: دار الغرباء الأثرية، 1995)، ص ص438– 439.

(24) أحسب هذا مخالفًا لمذهب الدارسين فهم لا يعنون الضاد المصرية فهم يرونها متحولة عن الضاد القديمة.

(25) فالح العجمي. «التطور الصوتي التاريخي في اللغات السامية الكلاسيكية»، **مجلة العصور**، 1993، مج8، ج1، ص ص 108-109.

3. دعوى مخرج الضاد

أول ذكر لمخرج الضاد ما ورد في الكتاب لسيبويه في قوله: «ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مُخرج الضاد»(26). ويوضح ذلك المبرد، فيقول: «ومخرجها من الشدق، فبعض الناس تجري له في الأيمن، وبعضهم تجري له في الأيسر»(27)، ويقول ابن جني: «ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد، إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن، وإن شئت من الجانب الأيسر»(28).

وهذا المخرج لا تشارك الضاد فيه أصوات أخرى، ومع ذلك وُصف هذا الصوت بالصعوبة حتى كان ذلك سببًا لتغيره. ووُصف هذا الصوت بأنه مُطبق كإطباق الظاء والطاء والصاد غير أنه يختلف عنها من جهة أنه ليس له نظير منفتح؛ ومن أجل ذلك قال سيبويه: «ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً»(29)، والصاد سينًا، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام، لأنه ليس شيءٌ من موضعها غيرها»(30).

---

(26) أبو بشر عمرو، سيبويه. **الكتاب**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975)، 4: 433.

(27) أبو العباس محمد المبرد. **المقتضب**، تحقيق: محمد عبدالخالق عضيمة، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1963)، 1: 193.

(28) ابن جني، **سر صناعة الإعراب**، 1: 52.

(29) الطاء التي تسمع اليوم في الاستعمال الفصيح وقراءة القرآن وكثير من اللهجات هي النظير للتاء أي طاء مهموسة ولم تبق نظيرًا للدال إلا في بعض لهجات اليمن.

(30) سيبويه، **الكتاب**، 4: 436.

فإن يكن للضاد مخرجها الفريد وصفتها الواضحة، فما الذي جعلها تنطق في بعض البيئات ظاءً؟ وأما خروجها من الكلام فلا يعني سوى أنها لا تظهر في شكل صوت له وظيفة بنائية في العربية فلا يكون وحدة صوتية (phoneme)، ولكن الإطباق صفة إضافية فإذا زالت وجب أن يُسمع أي صوت اتصف بها بشكل من الأشكال وإن لم يكن له وظيفة. فليس للباء المهموسة (P) وظيفة في العربية ولكنها تتحقق في النطق كما في قولنا: (لاعبْ سالًما) إذ تسمع: لاعپْ سالًما. والفاء المجهورة (v) لا وظيفة لها ولكنها تتحقق في النطق كما في قولنا: (اقطفْ زهرة) إذ تسمع: اقطڤْ زهرة. وأما الضاد فلا يُعلم كيف تكون بلا إطباق، إلا ما يقال من أنّ من العرب من ينطقها ذالاً فتكون في هذه الحال ظاءً بلا إطباق.

ويذكر سيبويه صورة صوتية (phone) للضاد، وهي الضاد الضعيفة، يوردها مع جملة الصور الصوتية التي لا توصف بالفصاحة، ولذا لا يقرأ بها القرآن. وهي صور مسموعة في لهجات العرب (لغاتهم)، يقول: «إلا أن الضاد الضعيفة تُتَكلف من الجانب الأيمن، وإن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر وهو أخف، لأنها من حافة اللسان مطبقةٌ، لأنك جمعت في الضاد تكلف الإطباق مع إزالته عن موضعه. وإنما جاز هذا فيها لأنك تحولها من اليسار إلى الموضع الذي في اليمين. وهي أخف لأنها من حافة اللسان، وأنها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها، فتستطيل حين تخالط حروف اللسان، فسهل تحويلها إلى الأيسر لأنها تصير في حافة اللسان في الأيسر إلى مثل ما كانت في

الأيمن، ثم تنسل من الأيسر حتى تتصل بحروف اللسان، كما كانت كذلك في الأيمن»[31].

وكلام سيبويه غير واضح هنا[32]، ولم يتبيّن منه ما الاختلاف بين الضاد الضعيفة وغير الضعيفة؟ ولا يُفهم معنى قوله «إنها تستطيل حتى تخالط حروف اللسان» ولا قوله «إنها تنسل حتى تتصل بحروف اللسان»، فهل يمكن أنه يشير بذلك إلى تحولاتها النطقية إلى أصوات أخرى؟ وهذا ما يُفهم من قول السيرافي الذي ذكره ابن يعيش: «والضاد الضعيفة من لغة قوم اعتاصت عليهم، فربما أخرجوها طاء وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وربما راموا إخراجها من مخرجها، فلم يتأت لهم فخرجت بين الضاد والظاء[33]. ويذهب غانم الحمد إلى أن هذا المصطلح صار يطلق بعد سيبويه على أكثر من صوت حسب ما تؤول إليه الضاد، سواء كان ظاء أو بين الضاد والظاء أو بين الضاد والثاء[34].

وغاية ما يُفهم من وصف سيبويه لهذا الصوت أنه صوت مطبق، ويصاحب نطقَه اقترابُ اللسان نحو الأضراس من جهة الفم اليسرى أو اليمنى، أي نحو الشدق يسارًا أو يمينًا، ولعل في ذلك عنتًا على الناطق دعاه إلى تركه والتحوّل عنه بعد. والسؤال هنا هو: أهذا الموضع الذي ذكره سيبويه

---

(31) سيبويه، **الكتاب**، 4: 432-433.

(32) وكذلك وصفه رمضان عبدالتواب بأنه كلام غير مفهوم، انظر: عبدالتواب، **مقدمة زينة الفضلاء للأنباري**، 1:16

(33) موفق الدين بن يعيش. **شرح المفصل**، (القاهرة: دار الطباعة المنيرية ،د.ت.) ،10: 127.

(34) غانم قدوري الحمد. **الدراسات الصوتية عند علماء التجويد**، (بغداد: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، 1986)، ص 280.

لنطق الضاد هو مخرج لها أم هو صفة كالإطباق وأنّ لها مخرجها الأصلي أي أن الجانبية أو الشدقية صفة لها أو ملمح من ملامحها كالإطباق والرخاوة التي وُصفتا بها، ذلك أن مرور الهواء من بين حافة اللسان والأضراس ليس هو مخرج الضاد لأنها كما وصفها سيبويه تستطيل، والاستطالة هذه هي ما جعلها تمتاز من الظاء في قول المجودين»(35).

وذهب عبداللطيف الخطيب إلى أن ما نسب إلى الخليل من أن الضاد من شجر الفم هو مخرجها(36) وأن ما قاله سيبويه هو صفة المخرج، ولكن المخالفين غلّبوا صفة المخرج على المخرج نفسه، ويستدل على قوله بالرسم الذي رسمه السكاكي في مفتاح العلوم حيث تظهر الضاد إلى الجانب الأيمن من الأحرف الشجرية(37). فإن تكن الضاد شجرية كما روي عن الخليل وجانبيّة كما ذكر سيبويه؛ أفما كان لها أن تميّز في السمع عن الظاء، وأن يستمر استعمالها فلا تذهب أو تتحول إلى أصوات أخرى؟

ولعل إبراهيم أنيس اقترب من قول الخليل حين حاول شرح الضاد العربية القديمة بقوله: «والضاد القديمة كما أتخيلها يمكن النطق بها بأن يبدأ المرء بالضاد الحديثة ثم ينهي نطقه بالظاء، فهي إذن مرحلة وسطى فيها شيء من

---

(35) الحمد، **الدراسات الصوتية**، ص267.

(36) جاء في (العين): «قال الليث: قال الخليل: فالعين والحاء والخاء والغَيْن حَلْقيّة، لأن مبدأها من الحَلْق، والقاف والكاف لَهَوِّيتانِ، لأنَّ مَبْدَأهُما من اللّهَاة. والجيم والشِّين والضاد شّجْريّة لأن مَبْدَأها من شجْر الفم».

(37) عبداللطيف محمد الخطيب. **ضاد العربية في ضوء القراءات القرآنية**، (القاهرة: عالم الكتب، 2001)، ص ص9-10.

شدة الضاد الحديثة، وشيء من رخاوة الظاء العربية؛ ولذلك يعدها القدماء من الأصوات الرخوة»(38). ويلاحظ أنه أهمل صفة الجانبية فيها.

ومن محاولات تصوّر مخرجها ما قاله برجشتراسر: «ويغلب على ظني أن النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب، غير أن للضاد نطقًا قريبًا منه جدًا عند أهل حضرموت، وهو كاللام المطبقة. ويظهر أن الأندلسيين كانوا ينطقون الضاد مثل ذلك؛ ولذلك استبدلها الأسبان بصوت LD في الكلمات العربية المستعارة في لغتهم، مثال ذلك أن كلمة (القاضي) صارت في الأسبانية: alcalde ومما يدل أيضًا على أن الضاد كانت في نطقها قريبة من اللام أن الزمخشريّ ذكر في كتابه (المفصل) أن بعض العرب تقول: (الطجع) بدل: (اضطجع). ونشأ نطق الضاد عند البدو من نطقها العتيق بتغيير مخرجها من حافة اللسان إلى طرفه»(39). ولا يختلف هذا القول عن قول سيبويه، وبخاصة أنه يصرح في آخره بتحوّلها من حافة اللسان إلى طرفه، أما الفعل (الطجع) فهو دليل على أن مماثلة الضاد للطاء في هذا اللفظ غير تامّة إذ بقيت صفة الجانبية التي سمعت لامًا. ويمكن القول إن هذه اللام في هذا الفعل كانت نتيجة التخلص من متماثلين، فالفعل (اضطجع) ماثلت الضادُ فيه الطاءَ مماثلة تامة فصارت طاء، ثم تُخُلّص من هذه المتماثلات بقلب أول المضعفين لامًا (الطجع) هكذا: اضطجع ← اطّجع ← الطجع.

وبرجشتراسر قال إن الضاد في حضرموت كاللام المطبقة ولم يقل إنها اللام؛ ولذا فإن رمضان عبدالتواب قد خالفه التوفيق حين فهم من قوله

(38) إبراهيم أنيس، **الأصوات اللغوية**، ص49.

(39) ج. برجشتراسر. **التطور النحوي للغة العربية**، (القاهرة: المركز العربي للبحث والنشر، 1981)، ص10.

السابق أن الضاد لام مطبقة، يقول عنها: «ويبدو من وصف القدماء لها، ومن تطورها في بعض اللهجات واللغات، أنها كانت لامًا مطبقة، كما يقول برجشتراسر، كما يبدو أنه كان فيها بعض الشبه بالظاء والضاد الحديثة»[40]، وإلا ما تطورت في اتجاه كل واحد من هذين الصوتين في اللهجات العربية الحديثة»[41]. ولم يُسمع من أهل حضرموت على كثرة من وفد منهم إلى نجد نطقًا للضاد كاللام المطبقة.

ويذهب المسهلي إلى أن الضاد العربية في لهجة الشحر[42]. وفي ظل غياب التوثيق الصوتي يصعب التثبّت من صحة هذه المقولة من هذه المقولة التي لعلها متأثرة بأقوال المحدثين.

5. دعوى اختلاط الضاد بالظاء

إن الأمر الذي يكاد يتفق عليه اللغويون هو اختلاط الصوتين الضاد والظاء؛ فعلى سبيل المثال، يقول مكي بن أبي طالب: «والضاد يشبه لفظها لفظ الظاء؛ لأنها من حروف الإطباق ومن الحروف المستعلية، ومن الحروف المجهورة، ولولا اختلاف المخرجين وما في الضاد من الاستطالة لكان لفظهما واحدًا، ولم يختلفا في السمع...»[43]. وكذا قال المرادي.[44]

(40) أي الدال المطبقة كما تسمع في مصر [دط].

(41) عبدالتواب، **زينة الفضلاء للأنباري**، ص13.

(42) محمد بن مسلم بن طفل المسهلي. **مفردات من اللهجة الشحرية**، (د.م: د.ن، 1997)، ص ص20-21.

(43) مكي بن أبي طالب القيسي. **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة**، تحقيق: أحمد حسن فرحات(دمشق: 1973)، ص 158.

وأشار المحدثون إلى هذا الاختلاط، ولكنهم يشيرون إلى صورتين صوتيتين للضاد إحداهما وقفية كالدال والأخرى غير وقفية وهي المطابقة للظاء. ويشرح إبراهيم أنيس الضاد الوقفية في قوله: «الضاد العربية، التي ننطقها الآن في مصر لا تختلف عن الدال في شيء سوى أن الضاد أحد أصوات الإطباق. فعند النطق بها ينطبق اللسان على الحنك الأعلى متخذًا شكلاً مقعرًا، كما يرجع إلى الوراء قليلاً. فالضاد الحديثة صوت شديد مجهور يتحرك معه الوتران الصوتيان، ثم ينحبس الهواء عند التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا. فإذا انفصل اللسان عن أصول الثنايا سمعنا صوتًا انفجاريًّا هو الضاد كما ننطق بها في مصر»[(45)].

ويروي عبدالعزيز مطر عن أستاذه أنيس علة نطق الضاد على النحو الذي وصفه وتغير الثاء والذال والظاء، فيقول: «إنما هو من تأثير اللغة الآرامية»[(46)]. ولكن هذا التعليل مُتَوقَّف فيه لأمرين: أحدهما أن عبدالعزيز مطر نفسه نقل في بحثه الميداني عن لهجة البحرين «أن نطق الظاء ضادًا عام في كل الموقع في لهجة سترة وما شابهها من لهجات»[(47)]. وليست سترة في نطاق اللغة الآرامية، والأمر الآخر أن الأصوات الأسنانية شهدت تغيرًا في كثير من البيئات

---

(44) انظر: الحمد، **الدراسات الصوتية**، ص268.

(45) أنيس، **الأصوات اللغوية**، ص48.

(46) عبدالعزيز مطر. **دراسة صوتية في لهجة البحرين**، (القاهرة: مطبعة جامعة عين شمس، 1980)، ص ص 9–10. وانظر في تحول الثاء إلى تاء أو سين وتحول الظاء إلى ضاد في بلاد الشام، الأب رفائيل نخلة اليسوعي. **غرائب اللهجة اللبنانية السورية**، (المطبعة الكاثوليكية/ بيروت، 1962) ص7.

(47) مطر، **دراسة صوتية في لهجة البحرين**، ص 18.

حتى البدوية منها، فالثاء تسمع من البادية في نجد مفخمة والذال تسمع مطبقة، نحو: (هذا ← هاظا، ذاق← ظاق). ولم يرصد المسهلي في كتابه عن المفردات الشحرية كلمات بالظاء تساعد على التعرف على كيفيّة نطقها، ولكنه رصد كلمة واحدة وهي (ضهر أي ظهر»[48]. وهذا قد يعني أن الظاء في هذه اللهجة نطقت ضادًا، أي جانبية حسب وصف المسهلي للضاد في لهجة الشحر.

ويبين أنيس بعد ذلك أن هذه الضاد الوقفيّة تختلف عن الضاد القديمة الموصوفة عند سيبويه في أمرين: أولهما أن ضاد المصريين شديدة أو انفجارية، في حين أن التي وصفها سيبويه رخوة. ثانيهما أن ضاد المصريين مخرجها من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا، ولكن التي وصفها سيبويه مخرجها حسب تعبيره(أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس)» [49].

ويشير رمضان عبدالتواب إلى خلط العرب بين الضاد والظاء فيقول: «تخلط بعض الشعوب العربية بين صوتي الضاد والظاء خلطًا كبيرًا في النطق والكتابة، كما هو الحال في بعض بلاد العراق وشمالي أفريقيا»[50]. وما ذكره عبدالتواب متوقّف فيه؛ ففي العراق خلط بين الحرفين في الكتابة لا النطق لأنه لا وجود للضاد الوقفية أو غير الوقفية في نطقهم، يقول سلمان العاني: «ولا تنطق الضاد في العراق سواء على المستوى المثقف أو الشعبي، إلا في لهجات

(48) محمد بن مسلم المسهلي. **مفردات من اللهجة الشحرية**، (د.م: د.ن، 1997)، ص 104.

(49) أنيس، **الأصوات اللغوية**، ص51.

(50) رمضان عبدالتواب. **مجلة المجمع العلمي العراقي**، (بغداد: مطبعة المجمع ،1971)، مج 21.

بعض المسيحيين العراقيين»[51]. ومع أنها تمثل في الكتابة بحرف «ض» فإنها دائمًا تنطق بصوت [ظ] وليس [ض]. ولذلك فهي غير مميزة صوتيًّا «لأنها منصهرة Fused مع الظاء» [52].

وربما يكون هذا الانصهار الذي أشار إليه العاني هو ما أراده رمضان عبدالتواب ولكنه لم يوفق إلى بيانه. فلعله قد أراد أنهم يخلطون الضاد بالظاء وهو أمر يختلف عن الخلط بينهما. ويؤيد ذلك ذهابه إلى أن الضاد في مصر لم تختلط بالظاء يقول: «وليس صوت الضاد الشائع في مصر وبلاد الشام بأسعد من صنوه في العراق وبلاد المغرب؛ إذ إنه تطور في اتجاه آخر من صوت الضاد القديم، وإن لم يختلط هنا بصوت الظاء، كما حدث في تلك البلاد»[53]. ولكن ما حدث هو تحول (الظاء) في مصر والشام إلى (الضاد) الوقفية أو زاي مفخمة؛ إذ ينطق بالضاد ما حقه أن ينطق بالظاء. كما في (الظَهر) تنطق وتكتب (الضَهر)، والعلم (إيلي ظاهر) يكتب (إيلي ضاهر). وقال عبدالعزيز مطر: «وفي الظاء التي أصبحت ضادًا: صليت الضُّهر- خلِّينا في الضل- الدنيا ضلْمه. بدلاً من: صلَّيت الظهر-خلِّينا في الظل- الدنيا ظلام»[54]. وقد قرر رمضان عبدالتواب ذلك في قوله: «وقد فقدت الظاء في اللهجة العامية المصرية

(51) وهو يقصد بالضاد هنا الوقفية المسموعة في مصر.

(52) سلمان حسن العاني. **التشكيل الصوتي في اللغة العربية: فنولوجيا العربية**، ترجمة ياسر الملاح، (جدة: النادي الأدبيب، 1983)، ص74.

(53) عبدالتواب، **مجلة المجمع العلمي العراقي**، مج 21.

(54) مطر، **دراسة صوتية في لهجة البحرين**، ص 9.

كذلك وحلَّ محلَّها الضاد، مثل: ظِلّ ← ضِلّ؛ أو الزاي المفخمة؛ نحو: ظُلْم ← زُلْم»[55]. وأما عن تحوّلها إلى زاي فلعلها الزاي الظائية التي وصفها ابن سينا بأنها «يكون وسط اللسان فيها أرفع والاهتزاز في طرف اللسان خفي جدًا»[56]. ويفسر إبراهيم أنيس هذا الصوت بأنه نطق الفرس للظاء العربية وأنه هو الظاء العامية نفسها، وتعد من الأصوات العربية وإن لم يرمز القدماء لها بصوت فهي تسمع في بعض القراءات القرآنية، وهذه الظاء العامية في الحقيقة زاي مفخمة»[57].

ذكر علي عبدالواحد وافي أن تحول الضاد إلى ظاء موجودة في «عامية المغرب وخاصة برقة، وفي لهجة العراق، وفي لهجة نجد، والقصيم وفي لهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر من الغرب (فبدلا من: وضوء، يضيع، يضرب، يضم...إلخ. يقال: وظوء، يظيع، يظرب، يظم ...إلخ.)»[58]. والضاد عند البدو في مصر هي «صوت أسناني، جانبي، رخو، مجهور، مطبق، قريب من الظاء العربية. يقول البدوي: يضحك، فاضي، مريض، ضيف. فيسمع السامع الضاد قريبة من الظاء التي ينطقها مجيدو القراءات

---

(55) رمضان عبدالتواب. **المدخل إلى علم اللغة**، (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1980)، ص45.

(56) أبو علي الحسين، ابن سينا. **أسباب حدوث الحروف**، راجعه: طه عبدالرءوف سعد، (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت)، ص25.

(57) أنيس، **الأصوات اللغوية**، ص146-147.

(58) علي عبدالوحد وافي. **علم اللغة**، (القاهرة: دار نهضة مصر، ط6، 1967)، ص284.

القرآنية في العصر الحاضر»[59]. وأما في لهجة شمال المغرب في تطوان وما حولها فإنهم «يبدلونها دالاً كما في قولهم مْدْخَّمْ، مْدَغْ(مضخم ومضغ). ويبدلونها طاء كما في قولهم: بْيَّطْ، لْحَامِطْ، رْطَعْ، رِيَاطْ، طْحَكْ عْلِيْهْ، غْمَّط عينَ، فَطْ، في (بيّضَ، الحامض، رضع، الرياض، ضحك عليه، غمض عينيه، وفاض)»[60]. وأما (الظاء) فإنهم «يبدلونها ضادًا في قولهم: ضْلّ، ضلْمْ، ضّلاَمْ، ضْنّ، ضْهَرْ، نضَرْ، وْضَّفْ، في (الظل، الظلم، الظلام، ظن، ظهر، النظر، وظفه) ويبدلونها طاء في قولهم: طهَارْ، لعطَمْ، لغليط، في(الظهر، العظم، الغليظ) ويبقونها فصحى في مثل قول لْمْظْلّ، نَّاظِرْ، بالله لْعْظِيم، لغيظ»[61].

ولا يزال الناس في البلاد النجدية وما جاورها لا يسمعون غير الظاء، فكل ما يكتب بالضاد ينطق ظاء كما هو الحال في العراق على نحو ما وصف العاني، ولم تعرف الضاد الوقفية في نجد إلا بعد توافد القراء من مصر والشام ونشرهم لطريقة أداء الضاد ومع ذلك ظل التمييز بين الصوتين غائبًا؛ وآية ذلك تظهر في تدوين أسماء الناس (الأعلام). فنجد الاسم قد يكون رسمه المفترض بالضاد فيرسم بالظاء وقد يكون رسمه المفترض بالظاء فيرسم بالضاد، وكل

(59) عبدالعزيز مطر، **لهجة البدو في إقليم ساحل مريوط**، ص47.

(60) عبدالمنعم سيد عبد العال. **لهجة شمال المغرب "تطوان وما حولها"**، (القاهرة: دار الكاتب العربي، 1968)، ص80.

(61) عبدالعال، **لهجة شمال المغرب**، ص80.

ذلك راجع إلى أن الناس لا يفرقون في الاستعمال بين الحرفين، ولا يسمعونهما مختلفين، ومن ذلك ما يتضمنه هذا الجدول»[62]:

الاسم بالضاد	رسمه بالظاء	الاسم بالظاء	رسمه بالضاد
تاضي	تاظي	حظاظ	حضاض
خضران	خظران	حظيظ	حضيض
ضاحي	ظاحي	حظيه	حضيه
ضبيب	ظبيب	ظافر	ضافر
ضفيدع	ظفيدع	ظبية	ضبية
ضيف الله	ظيف الله	ظويهر	ضويهر
عايض	عايظ	حفيظ	حفيض
عواضه	عواظه	حفيظة	حفيضة
عوضه	عوظه	حنيظل	حنيضل
عيضه	عيظه	حويفظ	حويفض
غاضي	غاظي	محيفظ	محيفض
معيض	معيظ	مغيظ	مغيض
موضي	موظي	مغيظه	مغيضه

(62) أبو أوس إبراهيم الشمسان. «تباين كتابة الأسماء العربية في الحروف والتشكيل: صوره وأسبابه»، ضمن كتاب: **توحيد معايير النقل الكتابي لأسماء الأعلام العربية: الأبعاد الأمنية**، (الرياض: أكاديمية الأمير نايف العربية للعلوم الأمنية، 2003)، ص18. وانظر للمؤلف نفسه كتاب: أسماء **الناس في المملكة العربية السعودية**، (الرياض: دار الرشد، 2005)، والكتاب موجود على الرابط العنكبي: http://www.aboaws.com/KITABANNAS.ht

ولذا يمكن القول مع داود عبده: «ليس هناك لهجة معاصرة واحدة فيها كلا الصوتين الضاد والظاء. فاللهجات التي توجد فيها الضاد لا توجد فيها الظاء، والعكس صحيح»[63].

وأما الضاد التي وصفها سيبويه، وألح المجوّدون على وجوب إتقان أدائها فهي في نظر الدارسين المحدثين كما هي في نظر القدماء من نحاة ومجودين قريبة من الظاء. يقول المستشرق (برجشتراسر): «إن نطق الظاء كان قريبًا من نطق الضاد وكثيرًا ما تطابقتا وتبادلتا في تاريخ اللغة العربية. وأقدم مثل لذلك مأخوذ من القرآن الكريم، وهو الضنين في سورة التكوير[64]، فقد قرأها كثيرون الظنين بالظاء مكان الضاد التي رسمت بها في كل المصاحف. وممن قرأها بالظاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي، وكذلك النبي (صلعم) كما قال مكي في كتاب الكشف[65]. ويرى إبراهيم أنيس أن هذه الآية «يمكن تفسيرها على أساس أن قلة من العرب كانوا ينطقون الضاد ظاء»[66]. كما يقول أنيس: «لا يخالجنا الآن أدنى شك في أن العرب القدماء كانوا في نطقهم يميزون هذين الصوتين تمييزًا واضحًا، ولكنهم فيما يبدو كانوا فريقين: فريق يمثل الكثرة

---

(63) داود عبده. **من قضايا اللغة العربية**، (عمان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، 2005)، ص 105.

(64) هكذا، وأما في المصحف فالآية {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} [التكوير: 24].

(65) مكي بن أبي طالب القيسي. **الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها**، تحقيق: محيي الدين رمضان، (دمشق: مجمع اللغة العربية، 1974)، 2: 364، وذكر مكي أنها بالظاء بمعنى متهم. و ج. برجشتراسر. **التطور النحوي للغة العربية**، (القاهرة: المركز العربي للبحث والنشر، 1981)، ص11.

(66) أنيس، **الأصوات اللغوية**، ص 5.

الغالبة، وهؤلاء هم الذين كانوا ينطقون النطق الذي وصفه سيبويه. أما الفريق الآخر فكان يخلط بين الصوتين»[67]. وحاول التعليل بقوله «وهذا الخلط الذي وقع في بعض اللهجات المغمورة، إنما كان سببه أن هذين الصوتين على حسب وصف سيبويه لهما يشتركان في بعض النواحي الصوتية، أو بعبارة أخرى كان وقعهما في الآذان متشابها. ولعل مما يستأنس به لهذا التشابه بين الصوتين في النطق القديم، وقوعهما في فاصلتين متواليتين من فواصل القرآن الكريم، مثل ما جاء في سورة فصلت قال تعالى: { وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ~ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ } [50، 51- فصلت]، وفي رأيي أن الانسجام الموسيقي بين فواصل كثير من الآيات القرآنية يهدينا إلى النطق الأصلي لبعض أصوات اللغة وقت نزول القرآن»[68].

ولم يسلم من الخلط بين الضاد والظاء قرّاء القرآن حتى إن علماء القراءات يؤكدون على وجوب الفصل بينهما، ووجوب أخذ النفس بالتمرن على أداء الضاد حتى لا تختلط بالظاء، وكأن هذا النطق ليس من لغة القارئ. يقول مكي بن أبي طالب: «فلابد للقارئ المجود أن يلفظ بالضاد مفخمة

(67) أنيس، **الأصوات اللغوية**، ص ص 53-54.

(68) أنيس، **الأصوات اللغوية**، ص 55.

مستعلية منطبقة مستطيلة، فيظهر صوت خروج الريح عند ضغط حافة اللسان بما يليه من الأضراس عند اللفظ بها. ومتى فرّط في ذلك أتى بلفظ الظاء أو بلفظ الذال فيكون مبدلاً ومغيِّرًا. والضاد أصعب الحروف تكلفًا في المخرج وأشدها صعوبة على اللافظ، فمتى لم يتكلف القارئ إخراجها على حقها أتى بغير لفظها، وأخل بقراءته، ومن تكلف ذلك وتمادى عليه صار له التجويد بلفظها عادة وطبعًا وسجية»[69]. وقال الداني: «ومن آكد ما على القراء؛ أن يخلصوه [أي الضاد] من حرف الظاء بإخراجه من موضعه، وإيفائه حقه من الاستطالة، ولا سيما فيما يفترق معناه من الكلام، فينبغي أن ينعم بيانه ليتميز بذلك»[70]. وقال عبدالوهاب القرطبي: «وأكثر القراء اليوم على إخراج الضاد من مخرج الظاء، ويجب أن تكون العناية بتحقيقها تامة»[71].

وأمر اختلاطهما مشهود في استعمال الناس قديمًا وحديثًا، فقد سجل الجاحظ مثل هذا الخلط بين الضاد والظاء قال: «زعم يزيد مولى ابن عون، كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء، فكان إذا دعاها قال: يا ضمياء بالضاد، فقال ابن المقفع: قل يا ظمياء، فناداها: يا ضمياء، فلما غيّر عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثًا، قال له: هي جاريتي أو جاريتك؟»[72]. وروي عن

(69) الحمد، **الدراسات الصوتية**، ص267-268.

(70) الحمد، **الدراسات الصوتية**، ص 268.

(71) الحمد، **الدراسات الصوتية**، ص 268.

(72) أبو عثمان بن بحر الجاحظ. **البيان والتبيين**، تحقيق: عبدالسلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط7، 1998)، 2: 211.

المدائني أنه «قرأ إمامٌ { ولا الضالين } بالظاء المعجمة، فرفسه رجل من خلفه فقال الإمام آه ضهري فقال له الرجل خذ الضاد من ضهرك واجعلها في الظالين وأنت في عافية»(73). وهذه الروايات تبيّن الخلط لكنها لا تُعين على تبيّن كيفيته ولا صفة الضاد المقصودة.

بل إن أمر اختلاط الضاد بالظاء يُرد في بعض الروايات إلى عهد الصحابة؛ فقد روى أبو علي القالي أن رجلاً «قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، أيُضَحَّى بضَبْيٍ؟ قال: وما عليك لو قلت: بظبي؟! قال: إنها لغة، قال: انقطع العتاب ولا يضحَّى بشيء من الوحش»(74). ولعل هذا الاختلاط يقف وراء كثرة ما كتب من أعمال منظومة ومنثورة للفرق بين الضاد والظاء، أحصى منها رمضان عبدالتواب ثلاثين عملاً»(75). وأوصلها حاتم الضامن إلى اثنين وأربعين عملاً ثم ذكر في مستدركه أربعة عشر عملاً ليصل المجموع إلى ستة وخمسين عملاً»(76).

---

(73) أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي. **أخبار الحمقى والمغفلين**، (بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ط3، 1979)، ص 112.

(74) أبو علي القالي. **ذيل الأمالي والنوادر**، (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.)، ص 142.

(75) انظر: مقدمة رمضان عبدالتواب لكتاب **زينة الفضلاء**، 23- 35.

(76) انظر مقدمة كتاب **معرفة الضاد والظاء**، لأبي حسن لصقلي، تحقيق: حاتم صالح الضامن (دمشق: دار البشائر، 2003)، ص؛ ص13، 15.

وقد أدرك الذين ألفوا تلك الأعمال أن الخلط بين الصوتين أمر واقع وأنه لابد من تنبيه الكتاب لكي لا يخلطوا في الكتْب بينهما كما يخلطون في النطق [77].

ويمكن الخلوص إلى أنه ما كان لهذين الصوتين أن يختلطا لو أن لكل منهما مخرجه المباين لمخرج الآخر، وهذا مؤشر قوي إلى أن الضاد في حقيقتها ظاء مع صفة إضافية هي الجانبية فإذا فقدت هذه الصفة عادت إلى أصلها فاختلطت بذلك الأصل. ويرى داود عبده أن الضاد الوقفية والظاء صوت واحد في الأصل، يقول: «وفي نظري أن اللغة العربية الأم (Proto-Arabic) لم تكن تحتوي إلا على أحد هذين الصوتين. وحينما تشعّبت إلى لهجات، تحوّل ذلك الصوت إلى الصوت الآخر في بعض اللهجات، وبقي كما هو في بعضها الآخر. ثم جاء اللغويون فجمعوا أمثلتهم من لهجات مختلفة؛ يحتوي بعضها على الضاد وبعضها على الظاء فسجلوا الصوتين كليهما، ومن هنا كان ورودهما معًا في الفصحى. أما اللهجات المعاصرة فقد (انحدرت) بعضها من لهجات قديمة تنطق بالضاد وبعضها الآخر من لهجات قديمة تنطق بالظاء. ولو كانت الفصحى لهجة محكية (انحدرت) منها اللهجات المعاصرة لوجدنا الضاد والظاء معًا في بعض هذه اللهجات [78]. ويرجع داود عبده أن تكون الظاء هي الأصل [79].

---

(77) انظر: مقدمة رمضان عبدالتواب لكتاب **زينة الفضلاء**، 19.

(78) عبده، **من قضايا اللغة العربية**، ص 105.

(79) عبده، **من قضايا اللغة العربية**، ص 111 تعليقة 26.

6. دعوى المعاقبة بين الضاد والظاء

يميل رمضان عبد التواب إلى أن «هذا الخلط بين صوتي الضاد والظاء كان قد شاع في القرن الثالث الهجري، وكان هو السر فيما ذهب إليه أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي اللغوي المشهور (توفي سنة 231 هـ) من أنه يجوز عند العرب أن يعاقبوا بين الضاد والظاء؛ فقد روى ابن خلكان [80] أن ابن الأعرابي كان يقول: (جائز في كلام العرب أن يعاقبوا بين الضاد والظاء، فلا يخطئ من يجعل هذه في موضع هذه. وينشد:

إلى الله أشكو من خليل أوده ثلاث خلال كلها لي غائض

بالضاد (بدل غائظ)، ويقول: هكذا سمعته من فصحاء العرب). ويزعم ابن جني أن ذلك ليس من باب المعاقبة، وإنما هي مادة أخرى فيقول: (وأما قول الشاعر:

إلى الله أشكو من خليل أوده ثلاث خلال كلها لي غائض

فقالوا: أراد (غائظ) فأبدل الظاء ضادًا. ويجوز أن يكون غائض غير بدل، ولكنه من غاضه: أي أنقصه، فيكون معناه: أي ينقصني ويتهضمني) [81].

وهذا الذي ينسب إلى ابن الأعرابي إن صح هو قول معياري يقعّد لنطق الحرفين فهو، وإن لم يسوِّ بينهما من حيثُ اللفظُ، يجيز أن ينطق اللفظ

(80) أبو العباس بن خلكان. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، (القاهرة: د.ن، 1948)، 3: 433 وانظر: **طبقات الزبيدي**، 215.

(81) ابن جني، **سر صناعة الإعراب**، 1: 215، وانظر: مقدمة **زينة الفضلاء للأنباري**، ص18.

الواحد بأي منهما. وهو بهذا يلغي أثر اختلاف الصوتين في معنى الألفاظ، وهو ما تمسك به ابن جني في محاولة تخريجه البيت. ويُعزّز مذهب ابن الأعرابي في الحقيقة القول بالعلاقة بين الحرفين وأن الضاد في حقيقتها هي الظاء.

ويذكر الصقلي بعض ما جاء بالضاد والظاء على معنى واحد، قال: «يقال: فاض الرجل وفاظ: إذا مات، يجوز بالضاد والظاء. وحضلت النخلة: إذا فسدت أصولها، يكتب بالضاد والظاء»[82].

وبتأمل نظائر الظاء والضاد يلاحظ أن هناك تقاربًا في دلالات بعضها مما يؤكد أنها ترتدّ إلى أصل واحد وأن أمر اختلافها لا يتعدى الكتابة والخط، فكأن الظاء والضاد حرفان لصوت واحد على نحو ما يقع في الإنجليزية من استعمال الحرفين (Q) و(k) لصوت واحد وفي بعض الألفاظ يستعمل له الحرف(c):»[83]. من هذه النظائر (التقريض والتقريظ) فالتقريض يطلق على المدح والذم، والتقريظ المدح»[84]. ومنها (الضَّلْع والظَّلْع) فالضلع الجور والميل والظلع في المشي الخمع الخفيف»[85]. فالمعنى يكاد يكون واحدًا. ومنها (العضّ والعظّ) فالعض الشدّ بالأسنان والعظ اشتداد الزمان والحرب»[86].

---

(82) الصقلي، **معرفة الضاد والظاء**، ص46.

(83) انظر أمثلة أخرى: تغريد السيد عنبر. **دراسات صوتية**، (القاهرة: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1980)، 1: 59.

(84) جمال الدين محمد بن مالك الطائي الجياني. **الاعتماد في نظائر الظاء والضاد**، (دمشق: دار البشائر، 2003)، ص 23.

(85) ابن مالك، **الاعتماد**، ص 35.

(86) ابن مالك، **الاعتماد**، ص 37.

ومنها (العضل والعظل) فالعضل التضييق وتعظّل القوم على فلان اجتمعوا عليه» [87]. ومنها (العضم والعظم) فالعضم مقبض القوس وعسيب الفرس وخشبة يُذرى بها الطعام والعظم واحد العظام والعظم خشب الرحل» [88]. فكأن الفرق بينهما فرق بين الحقيقي والمجازي. ومنها (اللضلضة واللظلظة) فاللضلضة التلفّت في المسير واللظلظة تحريك الحيّة رأسها غيظًا» [89]. ولا يُتصوّر أن اللفظ الواحد رُسم بالرسمين إلا لغياب الفرق بين الصوتين، أما تفرد أحد الحرفين بألفاظ تختلف عن ألفاظ الحرف الآخر فليس بدليل على التفريق بين الصوتين؛ إذ قد يكون أمرًا عشوائيًّا وبخاصة في وقتٍ كانت فيه الكتابة غير دقيقة كل الدقة، ورسم المصحف خير شاهد على اختلاف بعض الكلمات في رسمها. قال ابن خَلدون: «وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر، فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوحش لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع. وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الإجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته أقيسة رسوم صناعة الخط عند أهلها» [90].

(87) ابن مالك، **الاعتماد**، ص 38.

(88) ابن مالك، **الاعتماد**، ص 39.

(89) ابن مالك، **الاعتماد**، ص ص45.

(90) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون. **المقدمة**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، ص419.

7. دعوى تحولات الضاد

نقل غانم الحمد تلخيصًا لكتاب **بغية المرتاد لتصحيح الضاد** للمقدسي (1004هـ) وفيه يبين أن دافعه إلى وضع كتابه خروج كثير من أفاضل الناس في محروسة القاهرة عن مقتضى العقل والنقل في نطق الضاد؛ فهم ينطقونها ممزوجة بالدال المفخمة والطاء المهملة»[91]، وينكرون على من ينطقها قريبة من الظاء المعجمة بحيث يتوهّم بعضهم أنها هي»[92]. وذكر المقدسي اثني عشر دليلاً على أن اللفظ بالضاد كالظاء المعجمة هو المقبول، نوردها موجزة فيما يلي:

1- تعرُّضُ العلماء للفرق بين الضاد والظاء نظمًا ونثرًا دليل على تشابههما والتباسهما حتى خفي الفرق بينهما.

2- أن الضاد ليست في لغة التُرك، وليس المفقود فيها إلا الضاد الشبيهة بالظاء، وأما المشبه الدال المفخمة الذي ينطق به أكثر المصريين، وهو الضاد الطائية»[93] فموجود في التركية.

3- أن الفقهاء تعرضوا لأحكام من يبدل الضاد ظاء، ولم يتعرضوا لأحكام من يبدلها بحرف غير الظاء كتعرضهم لأحكام من يبدلها به، فلولا التشابه بينهما لما كانوا يفعلون ذلك.

4- أن بعض العلماء وصفها بالتفشي، ولا تفشيَ في الضاد الطائية.

---

(91) المقصود بهذه الطاء النظير المطبق للدال لا النظير المطبق للتاء.

(92) الحمد، **الدراسات الصوتية**، ص271.

(93) نسبة إلى حرف (الطاء) والمقصود به النظير المطبق للدال حسب وصف القدماء بخلاف الطاء الحديثة التي هي نظير التاء، وهذه الطاء القديمة(**ط**د) ما زالت تسمع في اليمن في مثل (طريق đariiq).

5- ذكروا من صفات الضاد النفخ ، ويشاركها فيه الظاء والذال والزاي. ولا يتحقق ذلك إلا بالضاد الشبيهة بالظاء. أما الضاد الطائية فلا توجد فيها هذه الصفة كما تبين من وصف مخرج الضاد.

6- ذكروا من صفاتها الاستطالة ، وهي المميزة لها عن الظاء ، ولا يوجد في الضاد الطائية الاستطالة.

7- ذكروا من صفات الضاد الرخاوة ، والضاد الطائية شديدة ؛ فالضاد لا رخاوة فيها إلا إذا أتت شبيهة بالظاء ، أما الضاد الطائية فمشوبة بالدال والطاء المهملة وهما شديدتان.

8- أن الضاد صعبة على اللسان وأما الضاد الطائية فهي في غاية السهولة ولذا فالضاد الطائية بعيدة عن الضاد العربية بمراحل.

9- أن المخرج المنصوص عليه للضاد في الكتب المعروفة المتداولة ليس إلا للضاد الشبيهة بالظاء المعجمة لا للطائية ، وأنت إذا نطقت بالضاد الطائية لا تجد الصوت ينتهي إلا إلى طرف اللسان وأعلى الحنك ، وهو مخرج الدال والطاء والتاء.

10- وصفها الخليل بأنها شجرية ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت شبيهة بالظاء ، فإن الضاد الطائية تخرج من طرف اللسان لا من شجر الفم.

11- قولهم عن اتصاف الضاد بالإطباق وأنه لولاه لخرجت من الكلام إذ لا يخرج من موضعها غيرها إنما يخص الضاد الشبيهة بالظاء ، وأما الطائية فتخرج من مخارج الحروف النطعية ، فلو كانت الضاد الطائية عربية

لوصفت بالنطعية كما وصفت أخواتها، ولقالوا لولا الإطباق لصارت الضاد دالاً، بدل قولهم لخرجت من الكلام.

12- أن أهل مكة وما والاها من بلاد الحجاز إنما ينطقون بالضاد الشبيهة بالظاء المعجمة ولا يسمع من أحد منهم هذه الضاد الطائية، وهم نعم المقتدى لمن رام في هذا السبيل الاهتداء.

والمقدسي يكاد يسوّي بين الضاد والظاء وقد أحس ذلك؛ ولذلك فهو يحترز وينبّه بقوله: «ليس مرادي بكون الضاد شبيهة بالظاء وقريبة منها كونها ممزوجة بها غاية الامتزاج، بحيث يخفى الفرق بينهما على المجيد لفن القراءة»[94]. ويعمد المقدسي إلى ترتيب درجات الإجادة الأدائية للضاد، قال: «إن من ينطق بالضاد من مخرجها الخاص مع صفاتها المميِّزة لها حتى عن الظاء فهو في أعلى مراتب النطق بها ومن الفصاحة. ودونه من ينطق بها من مخرجها مشوبة بالظاء لكن من مخرجها وبينهما نوع فرق. ودونه من ينطق بها ظاء خالصة، ومن يشمها الذال، ومن يشمها الزاي، ومن يجعلها لامًا مفخمة، وكذا من ينطق بالضاد طائية، فهو من أسفل مراتب النطقية بالنسبة إلى من سبق ذكره»[95].

وعلّق غانم الحمد على ما أورده من أقوال المقدسي بقوله: «والواقع أن كلام المحدثين عن العلاقة الصوتية بين الضاد والظاء لم يتجاوز ما قرره

(94) الحمد، **الدراسات الصوتية**، ص275.

(95) الحمد، **الدراسات الصوتية**، ص275.

المقدسي في كتابه (بغية المرتاد) إلا ما يدخل في باب زيادة التوضيح والتفسير للقضايا الأساسية في الموضوع» (96).

وينقل المرعشي ما أورده مكي في (الرعاية) من أن القارئ إذا فرط في تجويد لفظ الضاد أتى بلفظ الظاء أو الذال ومتى فرط في تجويد لفظ الظاء أخرجها إلى الضاد أو الذال ونقل تأكيد مكي على وجوب التحفظ بترقيق الذال إذا أتت بعدها قاف نحو (ذاق)(97)، وإلا صارت ضادًا أو ظاءً. ويستنتج المرعشي أن الحروف الثلاثة وهي الضاد والظاء والذال متشابهات في السمع وإنما يتمايزن فيه بمخارجهن وبعض صفاتهن (98). وبيّن المرعشي أن الضاد تُشارك الظاء في الجهر والإطباق والاستعلاء وفي الرخاوة، وأن في الضاد استطالة تقتضي امتداد الصوت وفيها تفشٍّ قليل يقتضي انتشار الريح قليلاً وبالاستطالة والتفشي تمتاز عن الأحرف الثلاثة (ظ، ذ، ط)، ثم يقول وبالجملة إن الضاد المعجمة أشبه بالظاء المعجمة (99). ويفسر المرعشي أمر التقصير بأداء الضاد وإخراجها طائية بما أشار إليه مكي في (الرعاية) من أن أكثر القراء والأئمة يُقصِّر في أدائها لصعوبته على من لم يدرَب فيه. ثم قال وذلك في تاريخ أربع مئة وعشرين وزمننا هذا أحق بالتقصير، فاعتبروا فلعلّ غلط

---

(96) الحمد، **الدراسات الصوتية**، ص276.

(97) نسمع هذا الفعل ينطق عند بعض بادية نجد بالظاء (ظاق)، وكذلك سمعته في الكويت من بعض كبار السن.

(98) محمد بن أبي بكر المرعشي (ساجقلي زاده). **كيفية أداء الضاد**، تحقيق: حاتم صالح الضامن، (دمشق: دار البشائر، 2003)، ص ص20–21.

(99) المرعشي، **كيفية أداء الضاد**، ص 24.

المصريين قد شاع[100]. وقد أثار رأي المقدسي وقول المرعشي أشرف محمد فؤاد طلعت فألف كتابًا تحت شعار (دفاعًا عن القرآن) سماه: **إعلام السادة النجباء أنه لا تشابه بين الضاد والظاء: دراسة تجويدية، لغوية، تاريخية، أصولية**، وجعله في أربعة فصول: الأول بيان بأسماء من قالوا بتشابه الضاد والظاء، والثاني بيان أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، والثالث نبذة مختصرة عن حرف الضاد ومخرجه وصفاته، والرابع بيان أن الضاد العربية الفصيحة لا تشبه الظاء المشالة بحال من الأحوال. ويقرر الباحث أن القراء المصريين لا ينطقون الضاد دالاً مطبقة «فليس منهم من ينطق الضاد من طرف لسانه مع الثنيتين العلويتين بل يخرجها من مخرجها الصحيح وهو حافة اللسان مع ما يليها من الأضراس مع إعطائها صفاتها الخاصة بها بقدرها المضبوط بلا إفراط ولا تفريط»[101].

وهذا القول تخالفه تسجيلات كبار القراء في مصر وتخالفه أقوال اللغويين المصريين أنفسهم وقد ذكرت طائفة منها في ثنايا البحث. وهو ليس من خطأ المصريين، بل هو تغير محتمل يعرض لأي صوت لغوي كالظاء والطاء والذال والقاف. ولعله بدأ منذ وقت مبكر، فتحولت الظاء في الاستعمال في بعض البيئات إلى ظاء جانبية (ظل) وإلى ظاء لثوية أسنانية (ظد)، ويمكن أن يُستأنس في هذا المقام بوصف ابن سينا(428هـ) للضاد بقوله: «وأما الضاد فإنها

---

(100) المرعشي، **كيفية أداء الضاد**، ص 25.

(101) أشرف طلعت. **إعلام السادة النجباء أنه لا تشابه بين الضاد والظاء: دراسة تجويدية، لغوية، تاريخية، أصولية**، (القاهرة: مكتبة السنة، 1988)، ص108.

تحدث عن حبس تام عندما تتقدم موضع الجيم وتقع في الجزء الأملس إذا أطلق أقيم في مسلك الهواء رطوبة وحدّة، أو رطوبات تتفقع من الهواء الفاعل للصوت ويمتد عليها منحبسًا حبسًا ثانيًا، ويتفقأ فيحدث شكل الضاد»(102). ولم أجد هذا الوصف عند غيره، ولعل السبب في ذلك أن من يصف الضاد يردد قول السابقين «وقد لا تكون نصوص التراث مفيدة جدًّا في تحديد نطق هذا الحرف وتطوره، لأنها تنقل عن بعضها بعضًا، ولأنّ أصحابها نادرًا ما وصفوا نطق معاصريهم، فهم يلجؤون إلى نقل أقوال السابقين اعتقادًا منهم أنّه وصف لنطق العرب (الفصحاء الذين صحّت عربيتهم)؛ يضاف إلى ذلك أنّهم قد لا يحدّدون المصطلحات التي يستعملونها تحديدًا شاملاً مانعًا وموحّدًا»(103).

والأمر الذي يمكن الاطمئنان إليه أنه لا يمكن أن يبلغ الشبه بين الضاد والظاء هذا المبلغ لو لم يكونا من مخرجٍ واحد. وأما انفراد الضاد بالاستطالة لتتميز عنها بالسمع كما ورد عند المرعشي فليس كافيًا لتكون الضاد وحدة صوتية (phoneme) مستقلة عن الظاء، بل هي صورة صوتية (phone) لها. وليس بغريب أن يكون للظاء صور صوتية (allophones) فالمشهود أن الأصوات الثلاثة (ظ، ذ، ث) استعملت كلها في بعض لهجات العرب المعاصرة بأن تأخرت نحو تجويف الفم فنشأت لها صور صوتية مختلفة (allophones) فالذال

(102) أبوعلي الحسين بن سينا. **أسباب حدوث الحروف**، راجعه: طه سعد، (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت)، ص18.

(103) عبدالفتاح إبراهيم. **مدخل في الصوتيات**، (تونس: دار الجنوب للنشر، د.ت)، ص ص92–93.

نطقت دالاً أو زايًا، والثاء نطقت تاء أو سينًا [104]، والظاء نطقت زايًا مفخمة أو دالاً مطبقة. وأما الضاد العربية التي لا يُعرف نطقها على الحقيقة سوى ما تردد من أقوال غامضة عن مخرجها وصفاتها، وقد تبين من ملاحظات كتاب التجويد أن أمر تميزها عن الظاء عسير. ولئن سلّمنا أن للضاد ما يميزها من استطالة وتفشّ فإنها في نهاية الأمر ظاء مستطيلة متفشية وأنها ربما فقدت في مرحلة من المراحل صفتي التفشّي والاستطالة لتطابق الظاء، ثم جعلت دالاً مفخمة كما تجعل الظاء دالاً مفخمة. وما يمكن التأكيد عليه أن التحولات ليست للضاد بل للظاء لأن الضاد هي في الواقع ظاء. ولعل هذا ما يفهم من أقوال بعض الدارسين المحدثين في (الضاد)، فهذا كانتينو يقول: «النطق القديم كان (ظْ لْ) أي ظاء ذات زائدة انحرافية، أي بتقريب طرف اللسان من الثنايا، كما في النطق بالظاء، وبأن يجري النفس لا من طرف اللسان، بل ومن جانبيه أيضًا[105]. وقال هنري فليش: «ولقد كان العرب يتباهون بنطقهم الخاص لصوت الضاد، وهو عبارة عن صوت مفخم، يحتمل أنه كان ظاء (d̠)جانبية، أي أنه كان يجمع الظاء واللام في ظاهرة واحدة[106].

---

(104) ولذلك نجد هذا يؤثر في الإملاء فقد تكتب الثاء تاء. ومن طريف ما يروى أن معلمة تصحح لطلابها كتابة كلمة (ثعلب) فقالت لهم: ما تكتبوهاش بنؤطتين [بنقطتين] اكتبوها بتلات أهوه: (سعلب).

(105) جان كانتنو. **دروس في علم أصوات العربية**، نقله إلى العربية: صالح القرمادي(تونس: الجامعة التونسية، 1966)، ص 86.

(106) هنري فلش. **العربية الفصحى**، ترجمة: عبدالصبور شاهين، (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1966)، ص 37.

8. دعوى رسم الضاد

قد يكون لأصوات العربية عدد من الصور الصوتية أشار إليها اللغويون القدماء منذ سيبويه على أنها طرائق لهجيّة للأصوات. ولو قوبلت تلك الصور بأحرف كتابية في الألفبائية لأشكل الأمر على الناس ولخلطوا في كتابتهم كما خلطوا بين الضاد والظاء. وما يدفع الخلط بين تلك الصور فترسم برسم الوحدة الصوتية إدراكهم أن الاستعمال الوظيفي لتلك الصور واحد (107).

ولكن الاضطراب يحدث حين يغيب هذا الإدراك بانتقال الإنسان من بيئة لغوية إلى أخرى ذات استعمالات مختلفة (108). ولم يكتف الزمخشري في الكشاف حين توقف عند قوله تعالى {وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ}[التكوير: 24] بذكر القراءتين بالضاد والظاء وتخريجهما بأن القراءة بالضاد بمعنى البخل، وبالظاء بمعنى الشك؛ بل ذكر أن الكلمة كتبت في مصحف أبي بن كعب بالضاد وكتبت في مصحف عبدالله بن مسعود بالظاء. وقال: «ولو استوى الحرفان لما ثبت في

(107) انظر: أبو أوس إبراهيم الشمسان. «جوانب من الاستخدام الوظيفي للغة»، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، الكويت، (1990)، ع37، مج 10، ص37.

(108) ولعل في المثال الذي أذكره ما يوضح هذا، وهو مثال نقلته من الشبكة العنكبية: "أذكر لك هذه الحادثة لطفلة نشأت في دولة عربية تفرّق بين نطق(ذ) و(ز) وانتقلت للدراسة في الابتدائي لمصر، ففي أول اختبار للإملاء، نطقت المدّرسة الامتحان باللهجة المصرية، فكتبت البنت ما سمعته من المدرسة، فجاءت النتيجة مأساة وعوقبت الطفلة "لغبائها" لأنها كتبت كل (ذ) بالحرف (ز) وكل (ق) بالحرف (أ) ومن سوء حظ الطفلة كذلك أن كان من ضمن كلمات الامتحان كلمة (ضابط) فكتبتها (زابط)، وكتبت (الزلال) أي (الظلال)، فكان يومًا أسود للطفلة". وقد كشفت غش أحد طلاب الرسالة القصيرة حين وجدت بعض الأخطاء الإملائية في العمل الذي زعم أنه كتبه وكانت الأخطاء في كتابة الذال زايًا.

الكلمة قراءتان اثنتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب» (109).

وعلّق إبراهيم أنيس على ذلك بقوله: إنه «يمكن تفسيرها على أساس أن قلة من العرب كانوا ينطقون الضاد ظاء. ونشعر من كلام ابن جرير الطبري في تفسيره أنه يميل إلى هذا. فهو يقول بعد ذكر هذه القراءة ما نصه (وأَولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب ما عليه خطوط مصاحف المسلمين متفقة وإن اختلفت قراءاتهم به وذلك بضنين بالضاد؛ لأن ذلك كله كذلك في خطوطها، فإن كان ذلك كذلك فأولى التأويلين بالصواب في ذلك؛ تأويل من تأوله: وما محمد على علمه من وحيه وتنزيله ببخيل بتعليمكموه أيها الناس). فالمصاحف كلها تتفق في رسم الكلمة بالضاد وفي رأي الطبري ترجيح معنى واحد للآية حتى مع القراءتين» (110). ولذلك فهو يخالف الزمخشري فيقول: «ففي رأي الزمخشري أن للآية معنى على القراءة بالضاد يختلف عن معناها على القراءة بالظاء. ولكني أطمئن إلى رأي الطبري وأميل إلى ترجيحه، وأرى القراءة بالظاء إنما كانت على أساس لهجة بعض العرب القدماء ممن كانوا ينطقون بالضاد ظاء» (111). وما يذهب إليه أنيس ليس ببعيد، وقد سبق ذكر ما نُقل عن ابن الأعرابي من تبادل الصوتين في لغة العرب وجواز ذلك. فالأمر لا يعدو كون الضاد صورة صوتية من الظاء.

---

(109) جارالله الزمخشري. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، (بيروتك دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت.)، 4: 225.

(110) أنيس، **الأصوات اللغوية**، ص ص55– 56.

(111) أنيس، **الأصوات اللغوية**، ص56.

ولكن السؤال الذي يبرز للأذهان هو لم جُعل لهذه الصورة الصوتية رمزٌ كتابي، أوليس تخصيصها برمز كتابي دليلاً على أنها وحدة صوتية مستقلة؟ ويبدو أن التشابه بين الصوتين وازاه تشابهٌ بالرسم مما يظن معه أن رسمهما واحد، كما كان صوتهما واحدًا أو كالصوت الواحد. يقول عبداللطيف الخطيب: «ويبدو أن التباس الحرفين في النطق اقترن بتشابههما في الخط، وقد أبان الجعبري عن هذا المشكل بقوله: (وجه بضنين أنه رسم برأس معوجة وهو غير طرف، فاحتمل القراءتين) »(112). ونقل في التعليق رقم (76) عن حاشية الشهاب الخفاجي قوله: «ذكر أبوعبيدة أن الضاد والظاء في الخط القديم لا يختلفان إلا بزيادة رأس إحداهما على الأخرى زيادة يسيرة قد تشتبه، وذكر الشهاب أن الأمر على ما ذهب إليه أبوعبيدة، وأنه لا يعرف هذا إلا من قرأ الخط المسند»(113).

على أن الكتابة التي أخذت منها الكتابة العربية ليس فيها رمز للضاد، ولم يجعل لها رمز إلا في الألفبائية العربية إذ زيدت ستة أحرف (ث، خ، ذ، ض، ظ، غ) وقد سُميّت بأسماءٍ تضارع الأحرف التي انشقت عنها بالإعجام أو بتطويره»(114). أما سليمان الذييب فهو يذهب فيما حدثني به مشافهة إلى أن الصاد والضاد رمز إليهما في النبطية برمز مشترك وكذلك الطاء والظاء رمز لهما برمز مشترك وهذا ما استمر في الرسم العربي إلى أن أدخل

(112) عبداللطيف الخطيب. **ضاد العربية في ضوء القراءات القرآنية**، (القاهرة: عالم الكتب، 2001)، ص21.

(113) الخطيب. **ضاد العربية**، ص74.

(114) رمزي البعلبكي. **الكتابة العربية والسامية**، (بيروت: دار العلم للملايين، 1981)، ص269.

الإعجام ليفرق بين الأحرف المشتركة. وقد أظهر هذا الرأي في كتابه عن قواعد النقوش النبطية[115]. والحجة التي يحتجّ بها الذييب أن الأنباط عرب ولغتهم عربية. وليس ببعيد أن يرمز لصوتين بحرف واحد كما هو الحال في الإنجليزية إذ يرمز (c) إلى (k) أو(S).

ويرى (جاشوا بلاو) «أن الأصوات الصامتة، في العربية النبطية والعربية النموذجية، التي لا يتضمنها رصيد الأصوات الصامتة في الآرمية النبطية ترسم بحروف تتوافق مع الحروف التي تكتب بها الكلمات الآرامية النبطية القريبة منها من حيث الأصل، لهذا فقد كتبوا كلمة (ظبي) بـ(طاء) في بدايتها، نتيجة لتأثير الكلمة الآرامية (طَبْهيَا)، ذلك على الرغم من أن الظاء والطاء ربما كانتا مختلفتين اختلافًا كبيرًا»[116]. وعلق في الحاشية رقم (55) فذكر أن هذا الافتراض لا يحل استعمال حرف يشبه (ص) في العربية النموذجية لكتابة (ض)[117].

وأعتقد أن المدوّن الأول للعربية جعل للظاء رمزًا وجعل لصورتها الصوتية التي أحسها تختلف بعض الاختلاف صورة أخرى توهمًا منه أن تلك الصورة مختلفة عن أصلها اختلافًا يستوجب الرسم المستقل. ولا حجة في أن

(115) سليمان الذييب. **مدخل إلى قواعد النقوش النبطية**، (الرياض: مطابع الخالد للأفست، 2001)، ص؛ ص13، 15.

(116) حمزة بن قبلان المزيني (ترجمة). **نشأة الازدواجية اللغوية في العربية: دراسة في أصول اللهجات العربية الحديثة، (دراسات في تأريخ اللغة العربية**، (الرياض: دار الفيصل الثقافية، 2001)، ص ص 201–202.

(117) المزيني، **نشأة الازدواجية اللغوية في العربية**، ص 243.

الرسم المختلف يحتمل اختلافًا في الدلالة لأن الأصل في اللغة المشافهة لا الكتابة، ثم إن المشترك اللفظي هذا شأنه؛ فهو اتفاق في الرسم والصوت واختلاف في الدلالة.

وننتهي إلى أمر تطمئن إليه النفس وهو أن الضاد ليست سوى الظاء ولكنها رسمت برسم يختلف عن الظاء، أي هما صوت رسم برسمين (ض/ظ). وليس هذا بغريب؛ فاللغات قد تتعدّد فيها الأحرف للصوت الواحد كما في صوت الكاف في اللغة الإنجليزية الذي يمثل بحرفين(k/Q) وقد تشاركهما (C) في بعض الألفاظ. ويرسم للهمزة في الأبجدية الأوجاريتية ثلاثة أحرف مختلفة لتعبر عن اختلاف حركاتها» (118).

بقي التعرّف على الكيفية التي جاءت بها الضاد بأشكالها المختلفة المسموعة اليوم. يعيد نعيم علوية جملة من الأصوات إلى أصل طبيعي، فالصاد والظاء والضاد والزاي والدال والشين والطاء كلها من (أصوات المص العفوي). يقول: «وتوق الصاد إلى الزاي ينزلق بذلق اللسان نحو الظاء، مما يخاوي بين /مَصَّ/ و/مَظَّ/ التي تؤول إلى /مَضَّ/» (119).

وخلافًا له فإنه يمكن القول إن الصوت في أصله هو الظاء، وهذا هو الصوت الذي شاع في البيئات البدوية في الجزيرة العربية وفي امتداداتها في العراق وبوادي الشام والأردن، وحملته بعض القبائل إلى بلاد المغرب واستمر إلى يومنا هذا. ولكن بعض البيئات الحضرية في الحجاز والسواحل التهامية

(118) سليمان الذييب. **الكتابة في الشرق الأدنى القديم من الرمز إلى الأبجدية**، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2007)، ص115.

(119) نعيم علوية. **بحوث لسانية بين نحو اللسان ونحو الفكر**، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1984)، ص110.

واليمنية تحوّل فيها صوت الظاء ليكون جانبيًّا بأن يقترب اللسان من الشدق أثناء إخراج الصوت (ظل) وهذا ما سُمّي بالضاد ورُمز له بالحرف (ض). وجُعلت الظاء وقفية بأن تأخّر مخرجها فلم ينحشر طرف اللسان بين الأسنان، بل انطبق على أصول الثنايا ليخرج الصوت انفجاريًّا بعد ذلك (ظد) وهو النظير المطبق للدال. ومن الصور النطقية لهذا الصوت نطقها لثوية مجهورة مطبقة أي نظيرًا مطبقًا للزاي (ظز). ومن أشكال النطق جعلها لامًا مفخمة ونسب هذا إلى الزيالع»(120). وقد يكون هذا بالمبالغة في صفة الجانبية لا أن تجعل لامًا خالصة.

وقد يجادل أنه في اللغة العربية الموحّدة تُفرّق بين كلمات تنتمي إلى الضاد وأخرى تنتمي إلى الظاء. وهذا صحيح، ولكن اللغة الموحدة هي نتيجة انصهار جملة من الخصائص اللهجية العربية، وليس غريبًا أن يحدث هذا. ولولا الكتابة التي رصدت صورتين لنطق الظاء ما كان هناك شكوى من تداخل الصورتين، لأن التداخل بين الصور الصوتية حادث في أصوات أخرى؛ ولكنه لا يُشْكل على مستوى الاستعمال الفصيح لأنه غير مُمثّل بحروف مختلفة.

وفي الختام يمكن القول بأنه ليس أمام مستعمل اللغة سواء نطق بالضاد دالاً مفخمة أم نطقها ظاءً إلا أن يحفظ ما يرسم بالضاد وما يرسم بالظاء لكي لا يخلط في كتابته بينهما.

(120) الواحد زيلعي نسبة إلى جبل زيلع في عسير جنوب المملكة العربية السعودية.